حديث الشهر

مع السندباد الفنان الدكتور حسين فوزى

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

قد يمشى فى الطريق فلا يلفت النظر اليه ٠٠٠٠ رجل عادى يغلب عليه التواضع والصحة ٠٠٠ أناقته كلها فى رأسه من حيث تــــكوينه « الطبيعى » أو من حيث « محتوياته » ٠

فشعره المجعد المقسوم بين اللون الأصلى والشيب وجبينه الواسع ولونه المصرى وفمه الصغير وعيناه القلقتان الساهمتان شيئا ما – كل هذا يؤكد ما قلتـــه من أن اناقته كلها فى رأسه ٠٠٠

كان فى جريدة الاهرام فى مكتبه فى الميعاد قبل أن أصل اليـه ٠ وكان اليوم حارا والجو فى مجموعه لايبعث على التفكير لأن الوقت كان ظهرا ٠

وعندما جلست معه فطنت الى اننى ارتدى بذلة كاملة لأنه كان يرتدى قميصـا بسيطا مفتوحا قصير الكمين ، ويرحب فى سرور ومودة ٠ وجلس لايكاد يشعر بحرارة الجو وطلب قدحين من (التمر هندى) فتأملت « السندباد » فى قميصه البسيط بعدما نطق بكلمة « هندى » وتصورت البلاد التى قطعها والبحار التى ركبها من الغـــابات الاستوائية الى ثلوج الشمال ٠

ذلك (السندباد) الذى بعث الى زميله وصديقه توفيق الحكيم برسالة ٠ كتبها السندباد وهو فى تونس فى احدى رحلاته العلمية وتناول وصف مدينـــة القيروان فكتب اليه الحكيم مداعبا يقول له : أنظر الى دراستك الاحياء وما فعلت بك ؟ لقد وصلتك حتى للصحراء !!

ربما كانت أكثر أسفاره من أهم أسباب بساطته ومن أهم سباب عمق ثقافته٠٠

لا يحب الاشياء الخفيفة ٠٠٠ منطقه « علمى » وأسلوبه « معملى » ولفظه « أدبى » ٠٠٠ يبحث عن التوافق الموسيقى والانسجام السمفونى فى كل ما يؤلف ٠٠٠

وقد كنت حريصا على أن أعرف سر ذلك عندما ألقاه لاننى ما كنت أعلم شيئا عن نشاته الأولى ٠ فقلت له :

ـ هل من الممكن أن أعرف شيئا عن نشاتك الاولى يادكتور ؟

ـ نشاتى الأولى ؟!

رددها وكأنه يريد أن يكشف سر ما وراء السؤال .

فقلت له بسرعة :

ـ حقيقة ... هناك كثيرون لايعرفون الكثير عن نشأتك وأنا شـخصيا تكمل صورة الأديب عندى حتى تصبح لوحة فى برواز حين أعرف نقطة البدء فى حياته . فالمسألة اذن دراسة وليست اشباع فضول .

فابتسم الدكتور حسين فوزى وهو يقول :

ـ لعلى أنا شخصيا لا أجد فى حياة الطفولة شيئا غريبا . لكن الذى يجب أن أذكره هو أننى نشأت فى قاهرة العصور الوسطى وأقصد بذلك هندسة البناء والمناظر العامة التى تفتحت عليها عيناى .

فعلى بعد عشرين خطوة من مسجد الحسين ولأب مهندس فى وزارة الاوقاف ... ولدت .

ولما تركنا هذا الحى انتقلنا الى حى مشابه هو باب الشعرية .

سكنا أحد بيوت المماليك وكان يطل على شارع الخليـج وعلى مقربة من باب مسجد الشعرانى ... أيضا !!

فقلت :

ـ من باب الحسين لباب الشعرانى !!

ـ الى البغالة ... الى فم الخليج .

مواطن الفلكلورية المصرية حتى اليوم . وكنت أتبع أبى وأنا صغير . تأملت المساجد والآثار التى كان يدخلها واحدا بعد واحدا . كنت أمسك بالشريط وأتابع علمه فى صمت . وأستطيع أن أدعى اننى كنت اتفاهم فى حب مع فن المعمار . كان يبدو فى انسجام استاتر بلبى ...

وشردت أنا قليلا والدكتور حسين يتكلم عن فن العمارة وحاولت أن اربط بين التناسق الموسيقى والانسجام السمفونى بين تأمله للعمارة وحبه للموسيقى فذكرت قول القائل :

« ليس فن العمارة الا موسيقى متجمدة » .

ثم ما لبثت أن عدت بذهنى اليه وهو يكمل تاريخ نشأته :

ـ حتى الكتاب الذى حفظت فيه القرآن كان صيغة للفن المعمارى الذى بدت فيه القاهرة فى تلك الفترة ، نعم وحفظت ثلث القرآن فى هذا الـكتاب ... حتى سورة (طه) وموسـيقى القرآن ملأت نفسى وحركت وجدانى ... أحببته أدبا وموسيقى . ثم دخلت المدرسـة الابتدائية ككل أبنـاء جيلى وأحببت الرسم والأدب

والموسيقى . قرأت الأدب العربى كله فى كل عصـــوره ... ثم تركز كل حبى واهتمامى حول الأدب والموسيقى .

وسكت الدكتور حسين بانتظار سؤال آخر لكننى كنت فى هذه المرة أتخيله فى مكان آخر غير جريدة الاهرام ... كانت صورته أمامى وكأنه على ظهر سفينة اسمها « النورس » فى يوم عاصف والبحر شديد الهياج . وهـذا الاديب الرقيق ينظر الى ثورة عناصر الطبيعة حوله .

ثم ما لبثت أن تذكرت أن هذه الصورة ليست خيالا . انها حقيقة حقيقة ... عاشها ووصفها السندباد فى كتابه « سندباد الى الغرب » ...

وهذه اللحظات التى سوف نعرف تفاصيلها كتبت تحت عنوان « كونترا بونتى » فى كتاب « سندباد الى الغرب » وهى من أجمل ما قرأته فى أدب الرحلات ... القصة المتحركة البسيطة الحية ... هذا هو أدب الرحلات فى نظرى .

أما كلمة « كونترابونتى » فقد شرحها الســندباد لأنها كلمة غير مألوفة عند الناس . وهى تعبير موسيقى فنى معناه « تأليف الحان مختلفة كل منهـا مستقل موضوعا ولكنها فى مجموعها تؤلف هارمونية » .

هذا هو العنوان الذى اختاره القصاص الرحالة الموسيقى الأديب العالم الطبيب

وفى هذه القطعة يمـكن جدا أن نرى القصــاص الرحالة الموسـيقى فى طيف واحد . مثل صورة مركبة من ثلاثة وجوه تبين فيها ملامح كل فرد .. أراد الدكتور أن يؤلف قطعة أدبية تتحقق فيها الهارمونية . فالف بين أسطورة الاسكندر الاكبر ذى القرنين الذى يجوب الآفاق بحثا عن روح الخلود وبين ... سفينة الصــــيد الفرنسية « النورس » ... سفينة الصيد ... التى لقيت الاهوال من أمواج البحر .

وفى هذه القصة « عصب » يربط أجزاءها المتفرقة . عصب من صنع المؤلف . كلمات ؟ ... لا ... بل أصوات ... أشبه بما يردده (الكورس) من كلمات بين مقاطع الاغنية . أصوات كأنها تقـوم بعملية « التقفيل » على ما فات ثم « التمهيد » لما هو آت . فى جو قصصى كحولى ... أو أثيرى ... أو فى شحوب ضـوء القمر .

اقرأ جزءا من القصة:

« زن .. زن .. زين . اسكندر ذو القرنين . زن .. زن .. زين . اسكندر ذو القرنين .

أساطير الاسكندرية تتطاير هنا وهناك . مبعثرة بين الشهنامة والمسعودى . قد يكون مصدرها ذلك المؤلف المزعوم (كللستينس) ومنها أسطورة ذى القرنين يجوب الآفاق بحثا عن روح الخلود . تصورها موسيقى بول دوكا فى معزوفته السمفونية (البيرى) . وهذه الموسيقى تتردد فى أذنى منذ غادرت قاعة (بليل) عصر يوم أحد واتخذت سمتى الى ميدان سانت اوجستيان .... فشارع الاوبرا . طريق طويل

تحدونى فيه أنغـــام البيرى الغنية ايقـــاعا وألحانا وهرمونية واذا بالايقاع يتطور ويتحول :

تك ... تك ... تك تم تم تين .

ما هذا الايقاع ؟ ليس من موسيقى بول دوكا ولا من هذه الناحية من العالم .
انه صدى لحن جاءنى من بعيد جدا . فى الزمان والمكان . انه ايقاع الساقية فى ريف بلادى الذى لايشبه ريفا رأيته منذ سافرت شرقا وغربا . أو هو صوت حنـــون كاد يقص علىّ طفولتى أسطورة الاسكندر ....

قصـــة حلاق الاسكندر الوحيد بين رجاله يعرف سر الملك العظيم حين يذهب الى مخدعه يصفف له شعره فيكشف بين خصلاته عن قرنين ... اسكندر ... لو له قرنين . اسكندر ... لو . لو قرنين .

ثم يذهب ليبوح بسره فى الفضاء والاركان الخربة يسرى عن نفســـه بالغناء : « اسكندر ذو القرنين اسكندر ذو القرنين » .

وتتحول الأنغام هكذا ... تلك التى سمعها السندباد فى قاعة الموسيقى من لحن الى . لحن يقص ــ قصة الاسكندر فلا يلبث أن يتطور الى لحن الســاقية الذى يعود فيقص قصة الاسكندر ثم يتطور اللحن الى شئ جديد .

تك .. تك .. بوم تك .. تك .. بوم

ويقص علينا هذا الذى هو ترجمة موسيقية لصوت الونش الكبير على السفينة ــ قصة سفينة الصيد « النورس » الى أن يستطرد السندباد قائلا :

وكان الطفل قد انتقـل الى عالم الأحلام فى هذا الايقـاع الساحر واذا به يرى نفسه فى مستقبل الزمان شابا يلبس كازاكة الصيادين وينتعل حذاء من المطاط طويل الرقبة ويمشى على ممشى السفينة الى جانب الريس (بوابيه) يشاهد الشباك تغيب فى مياه خليج غسقونية وطبلتى الونش الكبير تدوران لترسلا أسلاك الصلب للشباك تسحبها معها الى الأعماق وتغنى فى دورانها :

تك .. تك .. بوم تك .. تك .. بوم

جبال من الماء . جبال من الماء .. من الماء كل شئ حى .. جبال من الماء الحى .

وفى اللحظات التالية ترتفع (النورس) الطائر الأصم الأعمى . الجارية المنشأة من صلب وخشب ــ الى قناة جبال الموج فيرتد البصر وهو بصير وتبدو أسنة الموج على خط الأفق كأن صفحة البحر هناك أسنة المناشير الحداد .

وأتأمل وجوه الصيادين المجاهدين وسط العاصفة . العاصفة التى تتحـــول الى أعصار لو صدق راديو الريس بوابيه .

أبناء الحضارة يتابعون حرفة الانسان الأول .

٠٠٠٠٠٠ الشاطئ يبدو على بعد والكل سعيد بالاياب كأنه يقطع أول غربة بين أهله ووطنه • فالاعتياد لم يقتل فى نفوس هؤلاء الأشداء حنينهم الى الليالى يقضونها فى دفء الاسرة أو فى جو الحانة تعبق بالدخان الرخيص وتختنق باصوات العراك والضحكات العالية •

أما نهارهم فهو نهار رجال البحر فى كل مكان • يتريضون على الشاطئ فى مواجهة البحر • يرسلون دخان غلايينهم فى غلالات يحملها نسيم البر والبحر ويتفرسون البحر الممتد الواسع كأنهم لا يشبعون منه حبا ٠٠٠٠

وعندما ينتهى السندباد الفنان من كتابة قصة السفينة نراه يختم القصة باللحن الأول لحن اسكندر ذى القرنين •

كنت قد قرأت هذه القصة بتأمل عندما استوقفنى عنوانها وحين جلست مع الدكتور حسين فوزى ووجهت اليه سؤالا عن العلاقة بين الموسيقى والأدب فى فنه الكتابى - اذا به يذكر لى هذه القصة « كونترابونتى » وأخذ يكشف لى عن طريقته فى كتابتها ٠٠٠ قصتان فى قصة ٠٠٠ يربط بينهما لحن ٠٠٠ يتطور من حال الى حال • والقصتان ذاتا هرمونية ولو أن كلا منهما تختلف عن الاخرى ٠٠٠ كل قصة من واد •

وقال لى الدكتور حسين فوزى وهو يحدثنى عن العلاقة بين الأدب والموسيقى •

نحن لانستطيع ان ننقل الموسيقى الى الأدب ولكنى كتبت قصة على الأسلوب الموسيقى • ويستطيع من يدرس الموسيقى أن يتمتع دون أن يشعر بفائدة نادرة • وهذه الفائدة هى التأثير الموسيقى على طريقة كتابته • ويكون هذا التأثير - فى الأدب - داخليا مستخفيا • فأثر « الايقاع » يظهر فى بناء الجملة وكذلك أثر الرنين وأيضا وهذا هو الأهم - فان موسيقى الآلات مؤلفة من مجرد نغمات وهذه النغمات لاتعنى شيئا بذاتها المجردة • لكنها عندما (تبنى) تصبح شيئا آخر ٠٠٠ جديدا يعبر عن انفعالات مؤلفها •

ان البناء فى التأليف الموسيقى مثل البناء فى فن العمارة فالنغمات اذا لم توضع فى اطار مرتب مرسوم فلا تكون الا (تنغيما) وليست هى الموسيقى بالمعنى العظيم •

واهمية البناء فى الموسيقى هى التى تؤثر فى أدب الكاتب ولكى أوضح ذلك سأضرب مثلين •

الكاتب عندما يؤلف مسرحية والكاتب عندما يؤلف قصة طويلة •

فالذى يؤلف مسرحية لن يقوم عمله ولا توجد مسرحيته بدون البناء المسرحى • فاذا وجدت فمعنى ذلك أنها بنيت وهذا الكاتب ليس فى حاجة الى بناء موسيقى •

أما الروائى فعنده تكمن الصعوبة •

فقد تسرد القصة على شكل (حدوته) وقد تسرد سردا فنيا •

والسرد الفنى هو (البناء)

ولكي يكون البناء اصيلا ومتينا فليس ضرورة أن تظهر اسياخه الحديدية ٠ فالتأثير الموسيقى يستخفى فى بناء القصة كما تستخفى الأسياخ فى البناء ٠

سألت الدكتور حسين فوزى :

ـ هل فن الرواية وحده هو الذى ينتفع صاحبه بالبناء الموســـيقى وهو يبنى عمله الادبى ؟

ـ مؤكد ٠ لكن ٠٠٠ أنا شخصيا أحس تلقائيا بانتفاعى من الموسيقى حتى فى الكتاب ذى الفصول المختلفة ففى كتاب « سندباد مصرى » فصول كثيرة عن فتح مصر وعن رفاعة وعن الجبرتى والثورات وكليوبترة لكن مجموعة هذه الفصول منتمية الى ا،سل لاثراء وهو البناء الموسيقى ٠

وقد بدأ الكتاب بقسم مثل جحيم دانتى أى الحالة التى وصل فيها المصريون الى الضعة من بدء الفتح العثمانى الى عصر فاروق ٠

وهذا القسم سميته : « الظلام »

وسميت وسط الكتاب : **« ما بين الخيط الاسود والابيض »**

وسميت القسم الأخير : **« الضياء »**

قلت للدكتور حسين

ـ وعلى ذكر الأدب والموسيقى هل تذكر بعض فصول من كتابك (سندباد الى الغرب) وصفت فيها الموسيقى بالكلمات ؟ يعنى وصفت فيها الموسيقى بالأدب ؟!

عندئذ شرد السندباد قليلا وبدا يتذكر لكن ابتسامة معتذرة ولدت على فمه وهز رأسه قائلا :

ـ هل تذكر أنت ؟

ـ قلت : نعم ٠ أذكر قولك :

« كانت أول مقطوعة سمعتها هى السمفونية السابعة لبيتهوفن وما زلت أذكر نوعا من الخشوع استولى على المايسترو يستعد بعصاه ٠ ثم تنطلق كل هذه الآلات فى « زحمة » فجائية يتبعها لحن بطىء ٠ ثم تنهمر السمفونية نغمات واقصة تشيع فى الجو دفئا وفى النفس جذلا ٠ وكانت تلك القاعة المستطيلة الخسيسة يعبق جوها بالألحان التى جعلت تنعقد هنا وهناك صورا صوتية تختلط فيها حرارة الآلات الوترية بلهيب الآلات النحاسية يطفئها خرير من النايات الفضية ثم تضفى عليهـــا الآلات الخشبية أشعة زرقاء أو خضراء مائعة ناعمة »

أليس هذا جميلا يادكتور ؟

فابتسم فى تواضع ٠ فقلت له :

ـ لقد رفعت ثلاثة من العباقرة الى مسابع الخلود ٠ موسيقى ورسام وشـــاعر ٠٠٠ بتهوفن وأنجيلو وشكسبير ٠ ثم قلت :

« أما من عدا هؤلاء ففيهم الفنـــان الصناع • وفنان المشـــاعر وفنان الادراك الفلسفي • وفنان الايقاع • والفنان الصوفى • والفنان الدنيـــوى • وغيرهم ممن سبروا غور الانسانية وصوروا أشخاصهم من صميم الحياة فى واقعيتها أو فيما وراء النفس البشرية بسيكلوجيتها المعقدة • أما بتهوفن وانجيلو وشكسبير فكانوا كل هؤلاء فيما خلفوه لنا من تراث فنى رفيع جعل الارتقاء الى مقامهم شاقا ياخذ على المرء حياته كلها درسا وجهادا وحبا »

وقد احسست حبك لبيتهوفن فيما كتبت عنه يـــوم ذهبت تبـحث عن قبره فرايته منزويا خلف قبر باشمهندس بلدية فينا ••• لكن كيف حبك لفن القصة ولماذا لم تكتب لنا قصصا كثيرة انني قرأت لك قصة « الدوتشى الصغير » فاعجبت بدقة الوصف وبلمحات السخرية وقصة (مرثية) فكنت أبتسم وأدمع ••• قصة صديقك الفرنسى الذى غرق فى بحار الشمال الباردة والذى كان يعمل معك فى المعمل) زميلا فقيرا ساخرا ••• يعلق جاكتته ليس على شماعة بل يضعها فوق كتفى هيكل عظمى هناك حتى يتخلص من عمله فى المعمل •••

لماذا اذن لم تكتب لنا قصصا كثيرة ؟

احسست عندئذ أن الدكتور حسين فوزى يتأهب لنفى تهمة لا يحبهـا لنفسه ثم قال بكل وداعته وكل حماسته وكل انطلاقه :

ـ هل أنت لاتعرف أننى زميل محمود تيمور ؟!

سارعت مجيبا :

ـ أعرف ذلك •

فاستطرد :

ـ كنا ثلاثة ••• أكبرنا سنا وفنا محمد تيمور ثم محمود تيمور وأنا • وكان محمد تيمور فى فن القصة بمثابة المرشد لنا وكنا لا نكاد نفترق • وكثيرا ما سافرنا لعزبة احمد تيمور أنا ومحمود • ولعله يذكر حتى الآن ـ ودعنا نتفكه قليلا ـ قصة وزن القطن •

حدث أن ذهب محمود تيمور ليحضر بالنيابة عن والده بيع القطن وكنت معه • وجلسنا فى ساحة كبيرة وحولنا أكياس فى كل مكان وكان هناك « قبـــانى » يزن الأكياس • وكان محمود تيمور جالسا يتأمل الرمانة النحاســـية التى يزحلقهـــا الوزان بأصابعه حتى تتوازن مع الكيس على الحبل ثم يهتف الوزان بعدد أرطال كل كيس •

وأخذ محمود تيمور يتأمل هذه العملية مدة طويلة وأنا معه • وفجـــأة وجدت محمود تيمور قد نهض من على كرسيه والرجل يزحلق الرمانة ويمشى محمود حتى يقف الى جوار الرجل ويحملق فى الميزان • فما كان من الوزان الا أنه ارتبك وارتعش وأخذ يتبرأ من ذنب لم يرتكبه وهو السرقة • فقد اعتقد أن تيمور يفتش عليه • فى الوقت الذى كان فيه محمود تيمور ذاهبا ليعرف كيف تتم هذه العملية فما كان يعرف عن أرقام (القبانى) شيئا •

ومع محمود تيمور كتبت قصصا عددها خمس وعشرون نشرت ما بين ١٩١٩ ، ١٩٢٤ في مجلات السفور والفجر ٠٠٠

وكانت حياتي واعدة بأن تجعلني أمضى في هذا الطريق لولا حادثة رئيسية هامة :

ـ هي ؟

ـ هي سفري الى الخارج • فمجرد ركوبي الباخرة وسفري الى الخارج لدراسة العلوم تغير كل شيء • وكنت قبل ذلك قد فرغت من دراسة الطب واشتغلت بمستشفيات الرمد سنوات • وكانت دراستي للتاريخ الطبيعي والاحياء المائية سببا في أنني جبت العالم في رحلات لاعدد لها •

وقد مكثت في فرنسا وحدها خمس سنوات ٠٠٠٠

قلت للدكتور حسين فوزي :

ـ لماذا اذن ابتعدت عن دراسة الأدب في هذه الفترة ؟

ـ عندما نذهب نحن أبناء القديم ـ وهذا رأيي ـ الى مثل هذه المواطن فهل نؤلف ؟! لا ٠٠٠ بل يجب أن نتلقى • لان مثل هذه البعثة التي تكون بين سن الخامسة والعشرين وسن الثلاثين لن تتكرر ٠٠٠ لن تحدث الا مرة واحدة في العمر •

كان همي الأول أن امتليء بكل نافع حقيقي مفيد • أن أعرف لباب الحضارة في مدرجات السربون وقاعات العزف والمتاحف والمعامل وكتب الفكر والانتقال من بلد الى آخر •

ولم أكن أحس أبدا في هذه الفترة بحاجة الى الكتابة بل كانت كل رغباتي وطاقاتي وملذاتي المعنوية متجهة الى الشرب من مناهل الحضارة الحقيقية •

وكانت قراءاتي دائما لها خطة معينة ٠٠٠

ثم عدت الى وطني وأنا الاول في دراسة الأحياء المائية وألقى على عاتقي أنا وزميل لي عبء الثروة المائية •

ثم ابتسم الدكتور حسين في وداعة وتواضع واستطرد :

حتى اذا ما كانت سنة ١٩٣١ غرر بي صديقان هما توفيق الحكيم وأحمد الصاوي فجعلاني أكتب عن رحلاتي في (مجلتي) ٠٠٠ هذه هي القصة •

كان الوقت يتقدم وحر القاهرة في ذلك اليوم شديد الرطوبة ولم أر علامات تعب على محدثي • فقد علمته الرحلات طول الصبر كما علمته (المعامل) تحري الحقيقة والدقة • ولست أدري لماذا تذكرت كلمة رائعة عن الفن قالها الدكتور حسين فوزي ٠٠٠ تذكرتها وأنا أتأهب للنهوض فألقيتها على مسامعه كأنها تحية مني اليه ـ حييته بأقداره وبجميل كلماته :

« لقد طالب المسيح بالغفران للخاطئة لأنها « أحبت كثيرا » ونحن أحباب الفن قد يغفر لنا التمسح بمقامه والتعلق بجديد نوافذه أننا أحببنا الفن كثيرا »

ثم قلت للدكتور حسين : انني أحب الموسيقى لكنني أنقم عليها أنها استأثرت بك أكثر من القصة ٠٠ لكننا على كل حال نحس جمال الفن في كل ما تكتب •